

الفصل الخامس عشر

الحياة في نجران^(١)

لم نكن على استعداد للشروع في المرحلة التالية لرحلتنا، برغم أن إمدادات البترول قد وصلت، ذلك لأننا نحتاج إلى تحضيرات واسعة، خاصة إمكانية الحصول على المرشدين الضروريين واختيار الموظفين وتأمين الجمال لمثل هذه الحملة الطويلة. نحتاج إلى الجمال لنقل كميات الوقود الضخمة ومؤون الطعام إلخ، تولى العناية بهذه الأمور عامر الذي كان متحمساً لكل برامج الرحلة، وكان إلى جانب ذلك، على اتصال يومي باللاسلكي مع الرياض، ذلك لإصرار الملك على تأكيد عدم حدوث أية عقبات تقود إلى الفشل ويتأتى ذلك عن طريق تأمين اكتمال كل الاستعدادات. تحركت الحملة من عند قصر أبالسعود في اليوم الرابع والعشرين من يوليو، وتوفر لي بذلك من الوقت ما يزيد عن الأسبوعين لمواصلة استكشافاتي لنجران وما حولها.

عدت من الأخدود يوم الخميس (التاسع من يوليو) وقضيت الصباح كله أتجول في السوق والذي كان حيويًا أكثر في هذا اليوم مقارنة بسوق الإثنين، ويعزى ذلك لأنه من عادة الناس هنا، كما هي عاداتهم في أية مكان آخر، أن تكون عطلة نهاية الأسبوع يوم الجمعة -اليوم الديني للمسلم ويوم عطلته-. يمهّد سوق الخميس فرص

(١) لمزيد من المعلومات عن تاريخ الحياة الحضارية في جنوبي البلاد السعودية، بما فيها منطقة نجران انظر: غيثان بن جريس. عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ، ص ٣٣ - ١٩٣؛ هيفاء الياحي. الثبات والتغير في بعض عناصر الثقافة غير المادية في ضوء عمليات التحضر في منطقة نجران. ص ١١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

العرض الممتازة لإعداد المخازن الضرورية للبضائع ولجذب الزبائن المرغوب فيهم. يبدو السوق في هذا الخميس بالذات، وكأن كل سكان نجران قد تقاطروا إليه في هذا الفضاء العريض الذي يعج بأنشطة السوق المختلفة. جلست أ تبادل الحديث مع صاحب أحد المتاجر، ويدعى قاروتي وهو تاجر مقيم دائم هنا ولكنه في الأصل من أبناء الجوف من الزيديين^(١). كان لديه مخزون كبير ومتنوع من البضاعة المعروضة للبيع، ويبدو أنه كان موفقاً في عمله، ذلك لأن متجره لم يخلو قط من الزبائن. كان لديه ما يكفي من البضائع التي تباع بالقطاعي، وكانت كلها مصنوعة في اليابان إلا من لفة واحدة لقماش كانت مصنوعة في مانشستر، عرضها عليّ بكل فخر كما عرضها على زبائنه المعدمين دون نجاح في بيعها، وهو يعرضها هنا الآن بسعر القطاعي بسعر (٨) هندازز أو ثماني ياردات للريال الواحد (قل سدس) يعني (٣) بنسات للياردة الواحدة.

تضمنت مشترياتي زجاجة فازلين ومرهم عطري من صناعة شرقية وقوي الرائحة، كلاهما لعلاج لسعة الشمس عند الضرورة، إلى جانب زوج حذاء (بنعل من المطاط)، ونوعين من التبغ. تضمن مخزون التاجر علب الكبريت (صناعة يابانية وروسية)، والصابون (صناعة مصرية وفرنسية من مرسيليا) والبن وقشور البن من اليمن، والحبوب من الإنتاج المحلي، إلى جانب كمية من أشياء أخرى متضمنة أدوات معدنية (مثل خناجر الزينة.. إلخ) التي جلبت من صنعاء ومواد فخارية

(١) الزيديون أو المذهب الزيدي: نسبة إلى زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهذا المذهب أنشأه الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم عام (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) في صعدة ولا زال حتى اليوم هو المذهب السائد في معظم بلاد اليمن. انظر: عبدالواسع بن يحيى الواسعي. تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن. (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٨٤م)، ص ١٧٩ وما بعدها، عصام الفقي. اليمن في ظل الإسلام، ص ٣٧٨ وما بعدها. (ابن جريس).

جلبت من صعدة كنت أرغب في بعض الجنبات (خناجر) إلا أن النوعية التي عرضها عليّ بعد أيام في مقر إقامتي كانت كلها متدنية ولا تستحق أن تقتنى. كانت علب الكبريت، بالمناسبة، اليابانية والروسية الصنع، قد خصصت للسوق الشرقي، غير أن كلاهما كان يحمل رقعة تعريف إنجليزية وأسماء إنجليزية، مثل ميدال وسبورت بالتالي^(١).

يبدو أن نسبة كبيرة من زوار السوق هم من النسوة، ومعظمهن طاعنات في السن عجائز شمطاوات، ملحاحات في البيع كما أنهن متسخت ويرتدين أسمالاً مهلهلة. جلس معظمهن على الأرض جاثمات فوق حطب الوقود، أو فوق أوراق النخيل (لأجل درس الحبوب) أو فوق حصائر يعرض عليها البرسيم (وهو علف للجمال) أو يعرض عليها بلح لم ينضج بعد، أو توضع عليها أطباق صغيرة من حبوب أو توابل، وعشرات من الثريات التي من المحتمل أن تفي بالاحتياجات المتواضعة لزيائهن. وبالمقابل مع النساء كبيرات السن، فهناك سيدات شابات في أوج شبابهن وجمالهن - وكان بعضهن غاية في الجمال وكلهن يرتدين أجمل الأزياء. لا تغطي الفتيات غير المتزوجات رؤسهن، وأعتقد أن شعورهن الطويلة المستقيمة ذات التموج الطبيعي والمدهنة، واللامعة، كانت جذابة. يرتدي العديد من النسوة المتزوجات الشابات خصلات إضافية من نسيج صوفي أسود يزين رؤسهن، ويبدو أن النسوة كبيرات السن هن اللاتي يتميزن بارتداء الموصلين الأسود، وهو شبيه بغطاء الرأس المثبت المنتشر في نجد^(٢).

(١) لا غرابة إذا كان سوق الخميس الأسبوع في نجران بهذا النشاط، لأن نجران أساساً سوق تجاري كبير منذ عصور سابقة للإسلام، واستمرت على هذا النهج حتى اليوم. انظر: عبدالرحمن الأنصاري، نجران منطلق القوافل ص ١٥ وما بعدها، غيثان بن جريس. نجران، ج١، ص ٣٢٧ - ٣٦٧. (ابن جريس).

(٢) مثل هذه الالبسة تكاد تكون منتشرة في معظم أجزاء الجزيرة العربية، مع اختلاف فقط في مسمياتها من منطقة لأخرى. (ابن جريس).

كان معظم النسوة الشابات رشيقات الأجسام إلى حد بعيد رشيقات كذلك في كل حركاتهن، علماً بأن الأغلبية منهن لم تكن جميلات التقاطيع. كانت قاماتهن بصفة عامة جيدة. كانت أعناق جلابييهن الداخلية مفتوحة وبلا أضرار بصفة عامة وقد شقت إلى أسفل كثيراً لتيسر الرضاعة السريعة والسهولة للرضع اللاتي كن يحملن أولادهن حول خصورهن. كان مشهد السوق نابضاً بالحياة ومثيراً للانتباه، وقد ساعد هذا بالتأكيد، إكساب المرء فكرة عن المستوى المتدني فوق العادي للحياة في هذه الأجزاء دون إلحاق أي أذى يصيب سعادة هؤلاء القوم.

في الخميس التالي ظهر إعلان في السوق عن طريق النادي^(١)، بما يفيد أنه لن يسمح لأي مالك لمزارع النخيل أن يبدأ الحصاد إلا بعد فحصها وتقييمها فيما يخص الزكاة - كان لهذا الإعلان وقع في نفسي، رحبت به كثيراً ذلك لأنه يعني أنه من الآن فصاعداً سيكون هنالك تمر طازج مع كل وجبة طعام. حضر شقيق الأمير، بالمناسبة، واسمه محمد بن نشمي، والذي كان أميراً فرعياً على بدر في هذا الوقت^(٢)، إلى نجران في مهمة جمع الزكاة من البدو (خاصة رسم الجمال) وقد تحصل على مبلغ (١٦٠٠) ريال لإيداعها لخزينة الدولة. قابلت أيضاً أحد

(١) النادي: اسم مكان وله أسماء أخرى مثل: - الراية، أو المطل، أو المبدأ، وغيره من الأسماء. وهو عبارة عن مكان مرتفع في أرض السوق تعلن من عليه الأخبار المتنوعة سواء كانت سياسية، أو اجتماعية، أو فكرية وثقافية ودينية وغيرها. وهذه عادة قديمة جداً نجدها انقرضت اليوم. كما انقرضت الأسواق الأسبوعية، إلا في النادر، وحلت محلها الأسواق التجارية الدائمة. للمزيد انظر: حقي إسماعيل إبراهيم. أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية (عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م) ص ٧٠ - ١٠٥، ١٦٥ - ٢١٠. (ابن جريس).

(٢) بدر: قرية كبيرة في وادي بدر الذي يمثل رأس وادي حبيونا من الجهة الشمالية، ثم يمر شرقي ظهران الجنوب، ويأخذ مياهه من أطراف سراة عبيدة الشرقية. (ابن جريس).

زعماء المكارمة في آخر خميس في السوق واسمه السيد عبدالله، والذي كان حينها يقيم في خشبوة، وهي مركز طائفته^(١)، والتي سأحدث عنها فيما بعد.

كانت هذه الأسواق أماكن يتردد عليها كبار زعماء القبائل في يام، وقد قابلت من بينهم يحيى بن نصيب - كانت آخر مقابلة لي معه في الحصينية- وقد عاد للتو من حملة جمع الزكاة من حبونا ويصحبه في ذلك ابن النشمي، والذي عاد حديثاً أيضاً وفي صحبته ماريا (الوضيحي) صغيرة أهداها لي. وقد أرسلتها في الوقت المناسب إلى معرضي للحيوانات البرية بجدة، وقد أصبحت الماريا أليفة ومستأنسة هناك إلا أنها ماتت فجأة. علمت أنها قد تعرضت للعض من جانب أحد أرانبى الأوروبية والذي كان قد تسلل من قفصه، والمرجح أن لدغة ثعبان قد تكون هي السبب. زارني يحيى زيارة خاصة في الصباح وقبل مني هدية له عبارة عن عشرة رياللات وهو يلهج بالشكر، غير أنني عندما قابلت شقيقه جابر، في السوق كانت نظراته لي يشوبها كثير من اللوم وكأنه كلب السبيلي المجروح. ذلك لأنني لم أكافئه بعد على خدماته التي كانت قيمة جداً غير أنني سأفعل ذلك عندما تنتهي هذه الخدمات.

خرجت معه، في هذه الأثناء، وذلك عصر اليوم التاسع من يوليو لزيارة وادي برآن الذي يدخل إلى وادي نجران من جهة الشمال، في مقابل قمم أبي همدان ورعوم. كان معظم سكان مزارع النخيل القليلة المبعثرة من لواجد (قسم آل برآن) مع قليل من المكارمة (الإسماعيليين) والذين استقروا في هذا الموقع لأول مرة عندما وفدوا أصلاً من نجران. تشغل القرية سهلاً متوسطاً بيضاوي الشكل ينمو

(١) طائفة المكارمة لها عدة مراكز في نجران (بلاد يام)، منها: بلدة العان، وبلدة بدر، وقرى أخرى مثل:- خشبوة، وهداة، وسهلة. انظر: فؤاد حمزة. في بلاد عسير، ص ١٨٦. (ابن جريس).

عليه نبات الحلفاء وبعض شجيرات الشار وجانب لغطاء نباتي نموذجي آخر والذي قد نما نتيجة التقاء مسابيل ثلاثة جميلة محاطة بالصخور هابطة من عند سلسلة جرانيتية تكوّن الجانب الأيسر من وادي نجران. تشمخ واحدة من القلعات التابعة للمكارمة بجمال، فوق صخرة منعزلة في موقع الانبعاث، بينما تقف قلعة أخرى -كلاهما مدمر- وعلى مسافة فوق الصخور من ناحية الغرب.

توجد على مستوى السهل أربع مزارع نخيل صغيرة مزدهرة بشكل مذهش وبداخلها قصور مبعثرة، هي بالاسم، الخضيرة، والجبجة، وقردة وغيلة. يوجد في أولها نقطة للشرطة حيث دعينا إلى شراب القهوة والشاي وذلك قبل مواصلة السير لأجل القيام بدراسة المسيل الرئيس المركزي. وصلنا إلى مقبرة للقدمات، على بعد مقبرة قليلة وراء الواحة على انبعاث في المسيل، وكانت هذه المقبرة تحتوي على قبور عالية بشكل غير طبيعي، كما كان يعلوها مجموعة قبور أخرى. تعزى هذه القبور محلياً إلى قبيلة بني هلال القديمة وهي بلا شك لا تبدو شبيهة بمقابر المسلمين العادية، أو بمقابر العرب.

تحول المسيل إلى ما وراء هذه إلى مجموعة من شلالات جذابة والتي لا بد وأن تكون شديدة الجمال في مواسم السيول. يوجد الماء حتى في هذا الوقت وبكميات كافية داخل التجاويف وفي البرك التي تنتشر بين الصخور والجلاميد وقد وجدنا على الكثير منها بعض أسماء للمكارمة السابقين وبعض التواريخ وبعض التضرعات الدينية وبعض الجمل العاطفية. يضيق المسيل في أثناء جريانه ناحية الشمال الغربي إلى ممر يقال إنه يقود إلى قرية تسمى غثمة تقع على بعد (٩) أو (١٠) أميال. يجري الوادي (أو المسيل) ناحية الشرق إلى ممر آخر يسمى عقبة وشيقر عبر التلال، وهو طريق مطروق لمن يرغبون الطريق الأقصر من نجران إلى

ظهران، وفي الحقيقة فإن هذا الطريق هو الوحيد المباشر بين الموقعين وهو مناسب للحمير والجمال، والتي لا يصلح لها الطريق الذي يمر بغثمة. كانت إحدى البرك، عند منتصف المسافة، على هذا الطريق، متميزة بأن ماؤها لا ينضب على مدار العام ما عدا في مواسم القحط.

وجدت من بين ضيوف الأمير، بعد غروب الشمس وعودتي للعشاء مع الأمير، ناصر بن شماخ النهدي. لقد قابلت ناصر هذا في الحصينة حينما كان يهيئ نفسه للذهاب إلى خب لتحصيل الديون ويبدو أنه قد نجح في مهمته بحكم سرعة عودته (التي رحبت بها) إلى نجران. كما قابلت أيضاً أحد أتباع قبيلة الصيعر^(١) بحضرموت وذلك أثناء ساعات الصباح في السوق، وكان قد جاء إلى المكان ومعه قافلة ملح جلبه من شبوة، غير أنه لم يبدو لي وكأنه يرغب أن يدعوني لزيارة موطنه. كانت كل الأمور في قبضة الأمير، على كل حال، ولم يكن هنالك ضرورة للانزعاج. لقد ورد الاقتراح بانطلاق الرحلة خلال أسبوع، غير أن ذلك يبدو تقديراً متفائلاً جداً.

كان تصورنا أن تضم قافلتنا حوالي (٢٠) جملاً بالإضافة إلى سيارتين. لقد جلب محمد النشمي معه حجراً عليه بعض النقوش وذلك من جبونا، كانت النقوش على الجانبين -تحتوي كلها على (١٤) حرفاً فقط-. حضر الأمير والقاضي ومجموعة كبيرة في معيتهما إلى غرفتي عند المساء للاستماع إلى الأخبار، غير أن

(١) الصيعر ومفردها صيعري، وهو: الصيعر بن أشموس بن مالك بن خريم بن مالك (الصدف). ومالك أو (الصدف) يعرف في كتب النسب بـ (ثور) أو (كندة). ولا زالت بعض فخذ وعشائر الصيعر يعيشون في منطقة نجران حتى اليوم، وبخاصة في محافظة شروري. للمزيد انظر: الهمداني، كتاب الأكليل، ج٢، ص ٢٥ وما بعدها، وللهمداني أيضاً، صفة جزيرة العرب، ص ١٦٨ - ١٦٩، غيثان بن جريس. نجران، ج١، ص ٤٢. (ابن جريس).

التدخلات والشوشرة الكهربائية الجوية كانت مشبطة للنتيجة. كان الموقف في فلسطين في هذه الفترة قد دخل إلى مرحلة خطيرة وكان الكل يرغب ويتطلع لمعرفة ما يحدث هناك. كما وصل إلى مقري اليهودي يوسف وطلب مني أن أساعده في نقل جاليتيه من العربية السعودية إلى فلسطين، واقترحت عليه أن يأتي ليستمع للأخبار من القدس قبل أن يقرر.

كان الدافع، أو بعضاً منه، لرغبة اليهود في الهجرة إلى فلسطين غريباً. لقد عاشوا لعدد من الأجيال في نجران في توافق مع أكثر قبائل الجزيرة العربية شراسة ولم يصدر منهم ما يشكون منه. لا يمكن للعرب أن يستغنوا عنهم حقيقة بسبب خدماتهم نحو المجتمع، التي لا تقدر بثمن، إذ أنهم، إلى جانب أنهم يصنعون الجواهر والحلي الصغيرة للنساء. فهم أيضاً صانعو أسلحة ومختبروها في المنطقة. لقد أحسوا الآن -وخلال الستين الأخيرتين أو السنة الأخيرة- أن عملهم أصبح متدنياً، ذلك لأنه تحت النظام السعودي الجديد وأمنه، فقد تحولت السيوف، على سبيل المجاز، إلى شفرات محارث، وأصبحت المحارث المحلية تصنع من الخشب بدلاً من ظفر معدني لحماية الطرف. أخبرني يوسف كذلك بأن الإمام يحيى يبذل كل ما يستطيع من جهد لمنع هجرة اليهود من اليمن إلى فلسطين، حقيقة، فهم عنصر مهم جداً بين سكان هذه الأجزاء، وحقيقة، فإنهم يعاملون بأسلوب يشعرهم بالتفوق. كان من بين صناعاتهم في صنعاء، صناعة النبيذ والتي يحرم بيعها للمسلمين.

دعاني يوسف لقضاء يوم مع جاليتيه وقد تم الاتفاق المبدئي على الثالث عشر من يوليو، حينما ذهبت برفقة فرج وسائقي محمد بالسيارة إلى مزارع نخيل عوكلة، بالقرب من آل منجم، حيث أقام يوسف منزلاً دائرياً لأسرته المكونة منه وزوجته وإبنتهما الصغير سالم. كان منزله أكبر قليلاً من الكوخ وكان مكوناً من

ثلاث غرف، إحداهما في الطابق الأرضي والأخريان من فوقها وترتبط الغرف الثلاث بسلم حلزوني مبني من جدار من اللبن. لا يسمح لليهود بامتلاك الأرض في نجران، غير أن صاحب مزرعة النخيل العربي صرّح ليوسف بالبناء. دعا يوسف عدداً كبيراً من جاليته للحضور لمقابلتي كما رحبت زوجته بالحضور، إلاّ إنها وبعض النسوة اللاتي كن يعاونهما في العمل، لم يجلسن معنا. علمت بأنه لا توجد حدود لعدد الزوجات عند اليهود، غير أنه بالنسبة للظروف الخاصة في جنوب الجزيرة العربية، وفعلياً، فإن زوجة واحدة تكفي. نادراً ما تعتنق الفتيات اليهوديات الإسلام لأجل الزواج من عربي، غير أنه قد قيل إن الإمام يحيى كانت له زوجة يهودية -بالطبع بعد اعتناقها الإسلام- وكانت ذات جمال عظيم وقد طلب يدها العديد من الخطاب العرب، إلاّ أنها فضلت أن تكون زوجة للإمام نفسه.

روفقنا عند قدومنا إلى غرفة الضيوف التي تقع بالطابق الأعلى حيث وجدنا طبقاً ضخماً مملوئاً بالعنب الممتاز، ودارت فناجين الشاي والقهوة أثناء تجاذبنا الحديث. كان موعد الوليمة قد حدد بفترة ما بعد الظهر، سبب ذلك، أنني ذهبت مع يوسف إلى سوق الإثنين، الذي ربما جُلب منه العنب، ولم نتمكن من العودة إلاّ بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة ظهراً. عرضت عليهم فكرة فترة للاستجمام والراحة بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث لبعض الوقت، فكان أن أحضر لي الفراش ووضع تحت بقعة ظليلة عند حافة المزرعة. استغرقت في نوم ممتع لمدة ساعة وصحوت على ضجيج أطفال كل المدعوين الذين دعاهم يوسف لمنزله، وقضيت لحظات سعيدة بالحديث معهم. كانوا يتمتعون بجاذبية شديدة وجدية وجمال عظيم، ثم لحقت بالكبار من الضيوف في غرفة الضيوف حيث يقدم العشاء. كان قحف اللحم الجيد الطبخ قد فاض قليلاً بالحساء وكان الأرز ليناً أكثر من اللازم،

غير أنه لا شيء ينقصه إلا هذا، كما كان لدينا خبز ممتاز ومزيد من العنب، يتبعها مرة ثانية الشاي والقهوة، ومشروب قشر البن.

وصلني فيما بعد نقد لزيارتي هذه من جانب بعض العرب الأصدقاء يلومونني على تناول الخبز مع اليهود. غير أنني أوضحت لهم بأنهم «أهل كتاب» أيضاً وقد أكرموا الرسول ﷺ في المدينة. كما أن الرسول ﷺ تزوج من امرأة يهودية. مهما كان، فقد استمتعت تماماً بزيارتي للكوخ الصغير المظلم الشبيه بالحصن عند طرف عوكلة.

كان جد يوسف الأكبر، أكبر الجدود الكبار، وهو هارون، أصلاً مواطناً من مواطني حراز في اليمن، وغادرها ليعيش في أملح في بلاد الوعلة جنوب وادي الفرع. تناسل هارون وتكاثر هنالك وكان له خمسة أبناء انتشروا في عدة اتجاهات بحثاً عن سبل كسب العيش في مجال مهنة العائلة وهي صناعة الفضة، وصناعة الأسلحة وإصلاح الأسلحة، والطب البيطري وما شابه ذلك^(١). ذهب اثنان منهما إلى صعدة وخولان، وظل آخر في أملح لمتابعة أعمال والده وحضر الاثنان الآخرين إلى نجران وهما بالاسم: سعيد وسالم. كانت أسماء الثلاثة الآخرين هي إحسان، وسليمان، وداود، وكلها أسماء عربية جيدة - وهذا للعلم. كان لسالم ابنان ما يزال نسلهما موجوداً في نجران وهما يوسف وهارون، وحفيد حفيد يوسف الأكبر، وسعيد بن داود بن يحيى بن يوسف، وقد كان واحداً من مجموعتنا التي تكوّنت من ثمانية رجال بالغين وحوالي (١٢) امرأة وطفل. لعله مما يفيد تقديم جدول للأجيال التي جاءت من سلالة هارون والموجودة في نجران كما يلي:

(١) اليهود كعادتهم من قديم الزمان يعملون في الأعمال الحرفية المهنية مثل: صناعة الأسلحة، وصياغة الذهب والفضة، وغيرها من الأعمال الصناعية والتجارية، بخلاف العرب الذين كانوا يأنفون من العمل في مثل هذه الحرف، بل ويحتقرون من يعمل فيها. (ابن جريس).

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
هارون	سعيد	قلسة	يعيش	داود	موسى	
—	—	—	—	—	سعد	
—	—	—	—	—	يحيى	
—	—	—	—	—	يوسف	
—	—	سالم	يحيى	عباس	يوسف (مضيفي)	سالم
—	—	—	—	—	مذمان	
—	—	—	—	جميل	داود	
—	—	—	—	—	يوسف	
—	—	—	—	—	يحيى	
—	—	—	—	—	سعيد	
—	—	—	—	سليمان	يحيى	
—	—	—	—	—	موسى	
—	—	—	—	—	مسعود	
—	سالم	يوسف	جميل	سالم	سعيد (في أملح)	
—	—	—	—	داود	موسى	يحيى
—	—	—	—	—	—	سعيد
—	—	—	يحيى	(داود)	سعيد	
—	—	—	—	مسعود	سعيد	
—	—	—	مسعود	يحيى	سعيد	
—	—	هارون	سعيد	يوسف	يحيى	سعيد
—	—	—	—	—	—	مسعود

لقد وضعت خطأً تحت الأسماء الخمسة وكلهم من أفراد الجيل السادس، وقد تمكنت من مقابلتهم في هذه المناسبة، كما وضعت داود داخل أقواس، ذلك لأنه هو العضو الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة من أفراد الجيل الخامس. كان الأفراد القليلون الذي ورد ذكرهم في الجيل السابع قد بلغوا سن الرشد في هذا الوقت، غير أنني لم أشغل نفسي بالحصول على أسماء الأطفال، ما عدا ابن يوسف، واسمه سالم. كما لم أرهق نفسي بتأكيد أية تفاصيل عن أنسال هارون في أية مكان آخر غير نجران، فهم كثر بكل المقاييس.

لقد كان اليهود من نسل هارون، كما ذكرت، من أصل يمني، وقد ظلوا في نجران لمدة خمسة أجيال^(١) أو ما يعادل (١٠٠ عام)^(٢). كانت هنالك فرقة يمنية أخرى تعرف في هذه الجالية باسم العوعوي تنتمي إلى جميل بن سعيد وهو يهودي نجراني أمكنني أن أقابله عند وصولي إلى آل منجم. كان هو وخاله الثاني، يوسف بن داود من ضمن حضور الحفل في عوكله، وكانا هما الحفيدين لداود وسعيد، إبني جميل. كان من ضمن العواوين الذين ورد ذكرهم لي، غير أنه لم يكن موجوداً حينها، هو عيضة بن سعيد بن جميل، ويعتقد أنه خال ليوسف، كما كان ضمن الحضور شقيق يوسف، واسمه سعيد، أيضاً من أبناء نجران. وكذلك سعيد بن عفریم بن يحيى بن عواذ الشرعبي، ربما من أصل يمني أيضاً، وكان موجوداً في الحفل، غير أن هذه السلالة قد تكون خطأً محلياً، ويجد المرء نفسه مدفوعاً للتفكير في أن يكون هذا الخط للأسرة هو الصلة الوحيدة الباقية على

(١) هاجر كل يهود نجران الآن إلى فلسطين. (المؤلف).

(٢) البعض من يهود نجران تركوا اليهودية واعتنقوا الإسلام أثناء دخول منطقة نجران تحت حكم الملك عبدالعزيز، ثم عملوا في أعمال حكومية عديدة، ولا زال أولادهم وأحفادهم يعيشون في أماكن عديدة من المملكة العربية السعودية، وينهجون نهج أهل الإسلام. (ابن جريس).

قيد الحياة التي تربط اليهود مع الأخدود القديمة أو المستعمرات القديمة في كل من ناحي، وأجمع وعرم - وكلها مدمرة الآن مع بعض النقوش العبرية تذكر الزائر بوجودهم-. وهذا مجرد تخمين اقترحه غير أنه يوجد خط آخر، ولعله أكثر قدماً لليهود في نجران أصلهم جاء من العراق. يبدو أن هؤلاء اليهود يمثلون اليوم بعائلتين على رأسهما من بين الأحياء كل من سعيد بن جميل بن هارون بن داود وسعيد بن يحيى بن داود بن سليمان. كان كاهن الجالية عراقياً أيضاً، رجل طاعن في السن، لم أتحصل على اسمه، ولم أقابله، يجب عليّ، في الختام، ألا أنسى الأسرة التابعة لقبيلة لاوي العبرانية وهو الخط الذي تفخر به هذه الجالية والتي كان يمثلها في هذا الوقت هارون بن سعيد بن سالم بن سعيد اللاوي. وتشير استدامة وتكرار ورود اسم سعيد - مع تحويرات أخرى مثل سعد ومسعود- إلى حياة سعادة ورفاهية، وهو أمر مثير للاهتمام، إلا أنه مشوّش ومحير.

تبدو الجالية وكأنها مؤلفة من نصف دسنة من أصول مختلفة، ربما كشفت هذه الأصول عن موجات هجرة مميزة. قمت بزيارة كل من أجمع وعرم في طريق عودتي لقصر أبالسعود، ويقعان بالقرب من الصخور خلف مزارع الدحضة، غير أنه لا شيء يُرى هناك غير بعض القبور اليهودية وبعض النقوش العبرية. لم أر مثل هذه النقوش في الأخدود أو ناحي، إلا أنه قد أمكنني العثور على بعضها في وقت لاحق بين (ردوم) (أو القبور) على ممر نهيق. كان إجمالي عدد أفراد الجالية اليهودية في نجران في هذا الوقت حوالي (٨٠) شخصاً بما في ذلك النساء والأطفال. وتنتشر مساكنهم في المزارع المختلفة^(١).

(١) لم يستمر مكوث اليهود في نجران بعد دخولها تحت الحكم السعودي، وإنما خرجوا إلى أجزاء عديدة من بلاد اليمن، أو إلى بلاد الشام، وبخاصة فلسطين. (ابن جريس).

لم تتحقق دعوة الغداء التي وعدت بها جابر أبو ساق حتى حان يوم رحيلي من نجران إلى الجنوب. عسكرنا في تلك الليلة عند الطرف البعيد لنخيل آل منجم، والذي تبلغ المسافة من عنده إلى الطرف الغربي لصفا في الممر الذي يفصل بين الأجزاء السفلى والأجزاء العليا لواحة نجران حوالي (٢٣) كيلومتراً بناءً على سجل عداد سرعة سيارتي أو حوالي (١٤,٥) ميلاً ونصف الميل، لم تستطع السيارة الاستمرار إلى أبعد من صفا، والتي أعتقد أنها تبعد حوالي أربعة أميال (على أقصى تقدير) من المفجعة. ويبلغ امتداد واحة نجران كلها، على هذا الأساس، حوالي (١٨) ميلاً. قمت بقيادة السيارة من هذا المعسكر الأخير عند العصر في طريقي إلى معسكر جابر في سهل سعيد الكثير الأشجار، والذي يمتد فوق محيط التلال الكبير الذي يصب فوقه مجرى الأثائية ومسائل سيول ذات أهمية أقل من بين الجروف التي تمتد إلى التلال.

لقد رتبت تفاصيل سلسلة النسب التي جمعتها من جابر في هذه المناسبة والتي ليس لديّ جديد يقال عنها. كان العشاء ذلك العصر سخياً جداً، إلا أنه من النوع العادي. لم يكن من عادة قبائل نجران، حتى وقت قريب، أن يجلس الضيوف حول طبق طعام مشترك، كما فعلنا في هذه المناسبة، غير أن كل ضيف يقدم له نصيبه منفصلاً، يقاس هذا النصيب، ربما، حسب أهمية الشخص^(١). دُعي هذه المرة أفراد قليلون ممن حضر وليمة جابر وقد دعيت أنا وكذلك فرج وبالطبع جابر نفسه. قدم اللحم في قحف ضخمة منفصل ذي أبعاد كبيرة، ووضع

(١) للمزيد عن العديد من الأعراف والعادات والتقاليد الموجودة في جنوبي البلاد السعودية، بما فيها منطقة نجران، انظر: غيثان بن جريس. عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ، ص ٣١ وما بعدها، فؤاد حمزة. في بلاد عسير، ص ١٢٣ - ١٣٧. (ابن جريس).

الخبز في قحف آخر وهو خبز مخبوز بالسمن وبإسراف ومنتشرة عليه قطع شحم مسطحة، كان اللحم قاسياً ولكنه طبخ بطريقة لذيذة، كما كان اللبن ممتازاً.

تمكنت خلال هذا الوقت من إتمام استكشافاتي لكل القسم الشرقي لواحة نجران من عند آل منجم إلى صفا، وهو امتداد طولي يصل إلى (١٢) ميلاً وبعرض الميل الواحد في المتوسط من طرف مزارع نخيل إلى الطرف الآخر في الوادي الواسع، ذلك إذا تجاهلنا الانبعاج المشاهد في منطقة النخيل داخل الخلجان المختلفة للتلال الشمالية بواسطة الجانب الضيق لصفا والحضن ومواقع أخرى. تغطي شرق نجران، على هذا الأساس، بما في ذلك مزارع نخيلها وحقول ذرتها الصفراء والأراضي الغير مزروعة، مساحة تقدر بـ (١٢) ميلاً مربعاً أو تقريباً (٧٦٨٠) اكرا، لنقل (٨٠٠٠) اكرا، وكلها محصورة في وادي يبلغ حجمه ثلاث مرات هذا الحجم من قاعدة التلال التي تمتد من ممر صفا إلى موقع خروج الوادي إلى فجوة التدريب التي تقع أسفل خط رجلا - منجم بقليل. لا توجد زراعة أسفل هذه الفجوة عدا حقول صغيرة بالقرب من جزيرة برك الصخرية والتي تسمى أيضاً الرجا. يكسو بقية المجرى أشجار الطرفاء والأراك وغيرها خاصة عند النقاط التي تخرج منها بطون سيول قادمة من عند التلال على جانب الوادي الأيمن وعند فم شعيب دخل من ناحية الشمال.

لقد قمت بوصف القرى المقامة على الجانب الأيمن للوادي مسبقاً وهي بالاسم: الحضن والبديع، والقابل وما جاورها، ورجلا وضواحيها. تنقسم مزارع النخيل التي على الجانب الأيسر في مساره إلى أعلى، إلى عدد من المزارع الصغيرة لكل منها اسمه الخاص وتكون عدداً من الأقسام وأجزاء أقسام - أكثر هذه الأقسام

ازدهاراً في الواحة هو ذلك الذي يقع بين آل منجم وبني سلمان^(١) (بالقرب من قصر أبالسعود) وهو أغنى أجزاء المنطقة كلها.

لا تتلقى مزارع نخيل نجران رياً صناعياً ذلك لأن جذور الأشجار تمتص الماء من المياه السطحية في الوادي الرئيس ومن روافده العديدة. كما توجد، بالطبع، أعداد كبيرة من الآبار ذات الأعماق المختلفة غير أن معظمها ضحل، إلا أنه يستفاد منها في ري محاصيل الحبوب التي بدت وافرة الثمار بشكل مدهش وكانت سريعة النمو. يُحصد محصولان للقمح في العام وثلاثة محاصيل للشعير، وثلاثة أو حتى أربعة، حسب الموسم للذرة والدخن. وتزداد سيقان الذرة متانة أثناء النمو وتطول، ولقد يتجاوز ارتفاعها من (١٢) إلى (١٥) قدماً. كما يوجد تسويق ضعيف لمنتجات نجران وعادة ما تكون أسعار الجملة منخفضة بصفة عامة. ينحصر محصول التمر من الصنف المسمى حمرة وهو من نوعية متوسطة. ويكون الرمان محصولاً نقدياً إضافياً غير أنه لم يستو بعد في هذا الوقت كما أنه من نوعية متدنية وبذوره بيضاء وقشوره خضراء.

نذكر من بين المناطق المذكورة أعلاه والتي تقع إلى أسفل مع اتجاه الوادي كل من المذنب التي تتشارك فيها قبيلتا آل فاطمة (عند آل منجم) وآل الهندي (عند زبيد وزبدة). ثم تأتي ملامسة لها تقريباً، من ناحية الغرب، بني قدمة ويغلب فيها مواطنو قبيلة آل فاطمة مقارنة مع آل الهندي - فتكون من ست آبار أو مزارع مقابل خمس - وكما توجد إلى الغرب أكثر، وتقريباً بلا شيء يفصل بينهما، أكبر المجموعات، فعلياً، والتي هي أيضاً مشاركة بين القسمين. حيث تمتلك قبيلة

(١) إلى جانب بني سلمان يوجد في نجران قرى وفخوذ أخرى تدعى: - بني سليمان، أو آل سليمان، أو ابن سليمان. (ابن جريس).

هندي تسع وحدات ويملك آل فاطمة (١٥) وحدة بما في ذلك زلع (أو ضلع) التي تقع بالقرب من النهاية الغربية، وأيضاً القصر الشخصي وممتلكات جابر أبو ساق. كما تدار، إضافة لذلك، أربع منشآت شراكة بين عناصر من قبيلة آل فاطمة وعناصر من قبيلة آل الهندي. تكون هذه المجموعات الثلاث وهي المذنب، وبني قدمة، وصاغر، وهي منطقة مميزة تسمى مخلاف وهي مصطلح من عصور وسطى. يتوقع المرء، أن مثل هذه الأوضاع للملكية المشتركة (في الأزمان السابقة) قليلاً ما عاشت فيها القبائل في سلام مع بعضها البعض، علماً بأن أرض المخلاف هذه هي أكثر أجزاء كل نجران مشاكسة وتكون قضاياهم معظم دعاوى الملكية التي تعرض على كل من الأمير والقاضي^(١).

تسود قبيلة آل هندي إلى الغرب من منطقة المخلاف وعلى جانب الوادي الأيسر متضمنة، مزارع نخيل الحاضنة، وآل مستنير، وبئر ربيع التي تقع قليلاً إلى ما وراء قصر أبالسعود، والتي تعتبر في عرف القبائل أرضاً لا مالك لها وتضم سوقاً وأرض المعارض.

تكون قصور الأشراف ومزارع نخيلهم في المخبأ على الجانب الأيسر للوادي خروجاً واستثناء للعرف العام بملكية قبيلة آل الهندي لهذه الأرض، والتي تمتد، بالطبع، فوق الجانب الأيمن أيضاً من عند رجلا وحتى القابل. يتم خط يربط بين النهاية تجاه أعلى الوادي لقابل، مع بئر سالم، الحدود الغربية لقبيلة آل الهندي، بينما تحتل قبيلة لمواجد تقريباً كل مكان، بصرف النظر عن الاقتحامات على حقوق

(١) صراع القبائل والعشائر وسكان القرى على حدود المزارع ومسائلها، وكذلك على الأهمية التي ترعى فيها المواشي تكاد تكون من أهم المشاكل والقضايا التي عاشتها ولا زال يعيشها جزء كبير من سكان جنوبي البلاد السعودية. بل إن أروشيفات المحاكم الشرعية، ودوائر الشرطة، والحقوق المدنية مليئة بالوثائق التي تؤكد صحة ما ذكرنا. (ابن جريس).

الغير من ناحية الغرب. يقع مركز سلطان بن منيف في الحريزي في ممر رجلا على الجانب الأيمن، بينما تقع عوكلة وهي مزرعة نخيل في أقصى الغرب، وكثيفة جداً، وتتبع المخلاف على الجانب الأيسر، وقد سبق ذكرها بكونها موطن يوسف اليهودي. تنتمي كل من ابن زبعان وكل من مزارع النخيل التالية من جهة الغرب وهي دحضة، بين الهضاب المنعزلة البارزة لكل من خلقه وفريخ، إلى قسم الصقور التابع لقبيلة آل الهندي، بينما يملك آل الحارث (أيضاً آل الهندي) مجموعة آبار بني سلمان الكبيرة وأيضاً المزارع التي تقع بينهم وبين قصر أبي السعود.

تقع مكاتب الرئاسة لإخوان ابن نصيب، وهي الأسرة الرئيسة في المواجد، في مجموعة من القصور إلى الغرب من قصر أبالسعود وبالقرب من مزارع نخيل المراطة والشبهان. كما توجد بالقرب من هذه مزرعة صغيرة تدعى ابن حامد ومعظم مساحتها تشغله بركة كبيرة نسبياً ويتمركز فيها مجموعة من الأطلال ذات الأهمية الضئيلة، ويبدو أنها تتكون من ثلاثة أو أربعة قصور وكلها ليست حديثة، وربما كانت قديمة جداً. تقع خشبوة بالقرب من هذه القصور ناحية الغرب وهي مقر رئاسة طائفة المكارمة (الإسماعيلية) في نجران. يبدو هذا البناء وكأنه قصر أكثر منه منزلاً، كما أنه ليس بالقلعة، وهو محاط تماماً بحديقة ذات جدران ضخمة تحتوي الحديقة على أشجار النخيل وعلى العديد من أشجار الفواكه. كما توجد للمنزل واجهة ضخمة تفتح داخلياً ناحية الحديقة، والمنزل مكون من طابقين فقط، ويبدو أنه قد أعد لتأمين راحة النازلين فيه.

لقد ذكرت مسبقاً، قلعة عن المكارمة في شعب بران، وهي نصف مدمرة، وتطل على الوادي. توجد أسفل خشبوة وليست ببعيد منها مزرعة نخيل ذات اعتبار تدعى علو المخلاف، يمتلكها المكارمة أيضاً وتحتوي على قصر جذاب وقد

أحرقته قوات الزيدية المحتلة، وهم الذين قاموا أيضاً بتدمير جزء من المزرعة والتي ظلت جذوع أشجارها المحترقة واقفة لتروي القصة^(١). لا يبدو أن الزيود أضروا كثيراً بخشيوته، وكما قيل لي، فإنها قد أنشئت منذ (٨) أو (٩) سنوات قبل زيارتي هذه. إن المكارمة محصنون، مثلهم مثل الأشراف، ضد مضايقات القبائل وذلك لاعتبار مكانتهم الدينية. يطلق على رئيس الجماعة عادة اسم داع، -قارن مع لفظ داي في الجزائر- ويطلق على المجتمع أحياناً القرامطة وهم الذين قد انتشروا غرباً من منطقة الأحساء في الجزيرة العربية في القرن العاشر الميلادي. كان من أشهر المكارمة وإلى أزمان حديثة نسبياً المدعو حسن بن هبة الله وهو رئيس نجران في القرن الثامن عشر وهو الذي غزا وسط الجزيرة العربية وهاجم القوة النامية للدولة السعودية في الدرعية والرياض^(٢).

قمت في نهاية استكشافي لهذه المنطقة برحلة خاطفة قصيرة إلى غرب نجران، متفقداً نقطة الشرطة في المفوجة وكذلك النهاية السفلى للسلسلة. كان هنالك الكثير الذي يستحق أن يُرى خلال فترة العصر، فقامت، قبل مغادرتي نجران إلى الجنوب، بإعادة الزيارة إلى المفوجة لمدة ليلتين في العاشر والحادي عشر من يوليو لتكملة استكشافاتي للجزء الأعلى للواحة وكذلك السهل الذي يليها. كان سهل صفاء الدائري هو الرابط بين قسمي الواحة وهو ممتلئ بعشب الحلفاء والسمار (غفق) وبه مزرعة نخيل لا بأس بحجمها وكذلك عدد من القصور. يحيط بهذه

(١) اعتداءات القوى الزيدية في صعدة على بلاد نجران لم تكن وليدة العصر الحديث، وإنما جذورها التاريخية تعود إلى أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ولزيد من التفاصيل انظر: الواسعي. تاريخ اليمن، ص ٧٢ وما بعدها، غيثان بن جريس. نجران، ج١، ص ١١٠ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن نشاطات حسن بن هبة الله المكرمي العسكرية ومهاجمته الدولة السعودية الأولى في الدرعية، انظر: عبدالله العثيمين. تاريخ المملكة العربية السعودية، ج١، ص ١٠٠ - ١٠١، ١٠٦ - ١٠٧. (ابن جريس).

من ناحية الغرب الرعن الأسفل لأبي همدان، والذي عند نهايته ينحني المجرى في لطف ويدخل وادياً ضيقاً ويمر بفم شعيب بران وأيضاً بمزارع نخيل سلوى والتي تمت حمايتها من الإنجراف بجدار حجري متين يمتد من عند بداية المنحني إلى هضبة رعويم في مواجهة جرف عن المكارمة. إن رعويم نفسها، وتحيط بها قلعة قديمة لا تزال تستخدم ويرقى إليها الإنسان عن طريق ممشى متعرج على جانبها الجرانيتي، هي أيضاً تابعة لأبي همدان، وتنفصل عن رعنه بممر ضيق يسمى نجد يقود إلى سهل صفا.

لم يكن هنالك ما يثير الاهتمام في كل من قريتي صفا وسلوى، غير أن سلسلة قمة همدان التي تقع خلف صفا تسيطر على منظر عظيم لكل الجزء الأعلى لنجران. أنها تؤلف مساحة بيضاوية ذات اعتبار ومحاطة بتلال ممزقة من كل جانب مع وجود مدخل ضيق جداً يقود إلى الوادي عند النهاية العليا ووجود مخرج أعرض يقع به نخيل صفا ونخيل زور آل الحارث، الذي يبطن الجانب الأيسر للوادي في الجهة المقابلة لنا وذلك لبعض المسافة. تقع على يسارنا واحة زور وادعه الضخمة وهي محتضنة بين قاعدة أبي همدان والسلسلة العالية التي تستمر ناحية الغرب. كانت كل الأراضي، حقيقة، الواقعة بين الجانب الأيمن العريض المنحني للوادي وبين التلال المحصورة على ذلك الجانب، عبارة عن كتلة من نخيل تتخلله قصور السكان. كما تقف غابة ضخمة من القصب والحلفاء، وشجيرات من أنواع مختلفة وبعض الأشجار بين النهاية العليا لنخيل زور آل الحارث والموفجة عند قمة الشكل البيضاوي. يمتلك كلا الزورين أهالي لمواجد يتمون إلى آل الحارث بينما ينتمي الفخذ الذي يضم الموفجة إلى ابن الحزوبر (وهم أيضاً مواجد). تعادل المنطقة كلها ثلث القسم الشرقي لنجران أو أقل، وكان الفارق الرئيس بين الإثنين

هو أن الوادي أسفل صفا جاف دائماً، ما عدا في مواسم السيول ولمدة قصيرة بعدها، بينما في الحوض الأعلى فإن مجموعة من البرك المستديمة تعلّم المجرى. وتكون المياه السطحية قريبة جداً من سطح التربة، وذلك لقرب الصخر التحتي، حيث أن أية اضطراب أو تحذب في هذا الصخر التحتي يؤدي إلى رفع الماء فوق سطح الرمال. ينمو على هذه البرك أيضاً غطاء نباتي ثري مكون من نبات الزعتر، والنعناع البري، ونباتات عطرية أخرى إلى جانب القصب والأسل وكلها في الحوض الأعلى.

لم تكن كل من الموفجة وزور آل الحارث بالمزارع المزدهرة الكبيرة، غير أن زور وادعة تنافس وتبز أي مزرعة أخرى في شرق نجران من حيث الحجم والثراء. تسيطر هضبة بارزة على سفح أبي همدان على منظر رائع لهذه الواحة الجميلة والتي تباغت ذات يوم بقلعة صغيرة، هي الآن مدمرة، تسمى الحصن، ويبدو أنه كانت بها أحواض من الأسمنت وأنبوب إسمنت أو قناة لجر المياه إليها من بين الصخور من جانب التل. قمت بزيارتها وأنا في طريقي إلى قمة أبي همدان خلال اليوم الثاني لي في نجران، غير أنه لا يوجد ما يشاهد فيها غير الإسمنت المحطم، وكان بعضه في موقعه الأصلي، والحجارة المتساقطة من القلعة.

يقود الطريق من عند الصفا إلى الموفجة، بعد أن عبرنا المجرى وبركته الكبيرة الضحلة وهي آخر بركة في السلسلة حيث وصلنا إلى ممر ضيق جداً عبر غابة قصب كثيفة يرتفع نباتها إلى علو (١٥) قدماً، ومن ثم إلى أراض مرتفعة يغطيها أشجار الطرفاء، ثم عبر براري الحلفاء إلى أولى القرى ومزارع النخيل. كانت نقطة الشرطة عند الطرف البعيد للنخيل، وليست بالبعيدة عن المضيق الضيق الذي يهبط عن طريقه

الوادي . يقود طريق آخر أكثر دوراناً إلى الموفجة عبر نخيل زور وادعه ثم إلى بئر مثلج عند الطرف البعيد والذي عنده كنت قد شاهدت قصراً مدمراً وبئر نحى التي نصب مأوها منذ زمن بعيد ، - قيل إنه كان مقر قرية يهودية قديمة- مع عدد قليل من أشجار النخيل لا تزال قائمة لتطيل التفكير حول الأيام الجميلة التي مضت .

ينحدر مجرى شعيب مدر بين ناحي وزيته ، وكلاهما مدمر ، من عند جلاميد مدر في اتجاه الجنوب ليتصل مع الوادي نفسه . وينحدر أيضاً ، وعلى مسافة ليست بالبعيدة ، شعيب سفيرة من عند السلسلة التي تحمل الاسم نفسه تجاه الجنوب الغربي بالنسبة للوادي ، قليلاً أسفل المضيق ، حيث تغطت كل أرضية الوادي بملاءة من مياه ضحلة . كانت المياه هنا وفي المضيق مناسبة بالفعل ، ولكن بسيلا ن هزيل . أقمنا معسكرنا في حديقة بالقرب من نقطة الشرطة ، والتي دعانا أهلوها لتناول العشاء معهم في الهواء الطلق .

كان عرض الممر الصخري الضيق ، الذي ينشق عبره الوادي عبر حاجز صخري متين (ارتفاعه ٢٠٠ قدماً) يمتد من السلسلة على الجانب الجنوبي إلى حوالي (١٠٠) ياردة من السلسلة الشمالية ، حوالي عشرة أقدام ويسمى جلد . تسمى الفتحة العريضة التي تقع قليلاً ناحية الشمال للمضيق ، وعبر هذه تنحدر السيول لتتحنى إلى الخلف إلى الوادي بجانب الموفجة ، أو حتى عبرها . يتحز هذا المجرى ، أو مجموعة المجاري ، وذلك لوجود أكثر من بطن سيل واحد ، عميقاً في الرمل والحصى وجانباه غزيران بشجر الطرفاء وبغطاء نباتي آخر . يمر الوادي عبر المضيق فقط ويقال إنه عادة ما يكون جافاً في الموسم الجاف ، إلا أنه في هذا الوقت كان عمق مائه حوالي (١٨) بوصة وكان ممتلئاً بأسمك صغيرة . كان الارتفاع هنا (٤٧٠٠) قدم فوق سطح البحر وحوالي (١٠٠) قدم فوق قصر أبي السعود .

يبلغ طول مضيق جلد حوالي (٥٠) ياردة من الشرق إلى الغرب. يوجد عند جانبه الشمالي وقرىياً جداً منه ممر آخر عبر الصخور، يبلغ عرضه أيضاً ١٠ عشرة أقدام، والذي ربما قد تم إنشاؤه لضخ الفائض للمياه في حالة ارتفاع منسوب المياه إلى ذلك الحد في مقابل سد يبدو أنه مقام في وسط المضيق نفسه، حكماً بآثار القطع المشاهدة في الصخور على كلا الجانبين، والتي ربما قصد بها أن تمسك نهايات الحاجز. وتم كذلك نحت مجرى ضيق عرضه ثلاثة أقدام، في صورة مماثلة، على الجانب الجنوبي للمضيق، على جانب الصخور، لينقل المياه إلى ما يمكن القول عنه أنه ثكنات قديمة أو معسكر، والذي أقيم هنا لإيواء الحراس الذين يقومون بمراقبة السد. يبدو أن كل هذا التركيب القنواتي، والخليج المسدود، ومصرف الطوارئ، وأنابيب نقل الماء، كلها من عمل الإنسان في الأزمان القديمة حينما كان اهتمامهم ينصب على تأمين الماء الكافي لنجران ذات الكثافة السكانية الأحسن.

يوجد خلف الحاجز الصخري حوض دائري طبيعي ضخم يبلغ قطره نصف الميل ينحدر على جوانبه مجرىاً جلد والمضيق، عبر أراضي ذات غطاء نباتي من الطرفاء والأراك والشار وبعض التين البري، في طريقهما إلى مجرييهما حينما ينفصلان بعد أن أقبلا معاً كمجرى نهري واحد عبر المضيق العميق الضيق الذي يخترق الجبال. يلتف الوادي هنا -ويسمى في هذه المنطقة المضيق- ويندفع بصورة مذهلة بين سفوح شديدة الانحدار إلى حيث بطن الوادي الذي يتراوح عرضه بين (٥٠) إلى (١٥٠) ياردة، يكون حيناً رملياً، وحيناً مكسواً بجلاميد متساقطة، تبدو الآن بارزة من الأساس الصخري التحتي، يكون أحياناً جافاً، ويكون في مواقع من مجراه نهراً جارياً. يتجه الوادي بصفة عامة ناحية الجنوب الغربي ومسافة ميل

ونصف الميل عبر الطريق الملتف إلى أن يبرز في السهل العظيم والمستوي إلى حد ما، والذي يدخله الشعيب الرئيس، شعيب مروان من ناحية الجنوب الشرقي، ليتصل مع شعيب العَرَض من ناحية الغرب وشعيب رفيدة من جهة الشمال الغربي.

يمر المجرى الموحد في ممر مضيق بين كتفي صخرة تسمى طريبة مكونة مداخلًا مناسبة لمجرى وادي نجران. وينحدر شعيب مروان، الذي يشكل الأطراف الحقيقية العليا لنجران، من خلال تلال سهل صعدة، حيث يتشكل من اتحاد عدد من المجاري المائية المنحدرة من الجبال الشرقية للمدينة. ينحدر شعيب العرض من عند جبال خولان، ناحية الشمال، ماراً بواحة النقعاء في الطريق ثم يمر بأسفل سلسلة عالية تسمى فرد والتي عليها توجد بعض علامات الحدود بين اليمن والعربية السعودية. يعتبر شعيب رفيدة رافداً ثانوياً ينحدر من الممر المرتفع لعقبة رفيدة، والذي عن طريقه يوجد درب مطروق يقود إلى ظهران^(١). يوجد في الأرض العريضة التي تلتقي فيها هذه المجاري، كمية كبيرة من الطمي المترسب تنمو عليه مجموعة من أشجار الأثل الكبيرة والتي منحتنا ظلاً لطيفاً حينما استرحنا لتناول الغداء. كانت كل التلال المحيطة من الجرائيت مع بعض الشست والكوارتز.

واجهتنا هنا معضلة غريبة في مجال تحديد الحدود. توجد مقبرة يمنية صغيرة على الجانب الأيمن لشعيب مروان، عند الموقع لذي ينبعج فيه في الأرض المنبسطة ليقابل مجرى شعيب العرض. لم تكن جنسية ساكني هذه القبور هي موقع

(١) المقصود بـ (ظهران) هي: - ظهران الجنوب إحدى محافظات منطقة عسير من الناحية الجنوبية، وهذه البلدة تقع ضمن بلاد قحطان ووادة، ومجاورة تماماً لبلاد نجران من الجهة الشمالية والشمالية الغربية. (ابن جريس).

النزاع. حسم أداء قَسَم بسيط من جانب اليمنيين بأن هذه المقابر تتبع آل ثعلبة، من عشيرة الوعلة. كانوا يمينيين، لم تجد لجنة الحدود -كما نصحتها الخبراء المختصون- صعوبة في إقرار أن المقبرة أرض يمنية.

يتبع شعيب مروان، بشكل مشابه، ويجري عبر أراضي يمنية في معظم امتداده. عدا مسافة الميلين الأخيرين اللذين ينتهيان عند المقبرة. يتجه المجرى في هذا الموقع من الجنوب إلى الشمال، وعرضه هنا (١٠٠) ياردة وعلى الجانبين تلال معترف بأنها تتبع لقبائل لمواطنين يتبعون العربية السعودية. قررت لجنة الحدود أن بطن الوادي الفعلية يجب أن تعتبر ممراً تحت السيادة اليمنية يقود إلى المقبرة ومتضمناً لها. وقد وضع على طرفها مجموعة من حجارة تعليم الحدود لإرضاء الجميع. لم تكن هنالك ضرورة لوضع عمود مماثل على الجانب المقابل للشعيب، وليس من المحتمل أن هذا اللسان النحيل من بطن الوادي الذي يبلغ طوله الميلين وعرضه المائة ياردة سيكون مصدر نزاع. غير أنه في حالة نشوب حرب، فسيجد اليمنيون أن هذه المقبرة البارزة لا يمكن الدفاع عنها. يتصل، بالمناسبة، شعيب صغير آخر يسمى سوع بالملتقى العام لكل من فم شعيب مروان ورأس المضيق. صعدنا عند هذا الموقع إلى (١٢٠) قدماً فوق مستوى جلد.

بدأنا من عند هذا المكان التسلق على تلال منحدرية نسبياً تحيط بالجانب الأيمن لمروان. ووصلنا بعد فترة إلى مضيق ضيق يسمى الدغماء^(١) على ارتفاع (١٠٠٠) قدم فوق المقبرة وفوق عمود الحدود. استطعت من هنا أن أقوم برسم الحدود

(١) الدغماء يطلق عليها أيضاً فرع الدغماء، انظر: عبدالله القبايع. العلاقات السعودية اليمنية، ص ٤٠٦ (ابن جريس).

وعلاماتها كما أوضحها لي المرشدون الذين ساعدوا في وضع حجارة الحدود. كان عمود الحدود الثاني واقعاً بعد المقبرة على تل يسمى أسعر^(١) على الجانب الأيسر لمروان، الذي يدور ناحية الغرب فجأة، وذلك على مسافة قليلة فوق أسعر وعند موقع التقائه مع شعيب شوك الذي يأتي من جهة الجنوب، من بين جبل مقاشع الذي يقع داخل انحناءته وجبل غزال في المنحنى بين دورانه نحو الغرب من شعيب شوك. كان موقع عمود الحدود الثاني عند مقاشع، التي تأتي بعد أسعر، وكان العمود التالي فيما يلي مقاشع من فوق سلسلة تسمى الضرك^(٢) على الجانب الأيسر لمروان. يلي هذا عمود حدود آخر حددت له البقعة الوسطى من بين ثلاث نتوءات على رأس جلمود فرد^(٣) الضخم والذي يكون كل من جانبه الشمالي، وشعيب العرض عند سفحه، إقليماً سعودياً، كما هو حال الإقليم التالي المحصور بين الشريط الذي يصل فرد، وضرك، ومروان من عند ضرك إلى أسفل. وابتداءً من مكان التقاء مقاشع تتجمع شوك ومروان ثم تسير السلسلة بالاتجاه نحو نهوة، كما سيتضح بعد قليل.

تبعد نقطة الملتقى عن المضيق الضيق للدغماء بمسافة تقدر بحوالي ميلين ناحية الجنوب الغربي ومن هناك أمكننا رؤية شعيب شوك ناحية الجنوب لمسافة تبلغ أربعة أميال. أستطع رؤية سلسلة قيري وهضاض وكلاهما يحمل علامات الحدود من

(١) أسعر، يقع ضمن الحدود بين اليمن والسعودية ويطلق عليه أيضاً (جبل فريض أسعر)، انظر: القباع، العلاقات السعودية اليمنية، ص ٤٠٧ (ابن جريس).

(٢) الضرك: — يذكر القباع هذا المكان باسم (رهوة ضرك) في حين ابن زلفه يذكره «رهوة الفك»، وأعتقد أن الصحيح هو رأي القباع. انظر: القباع، المرجع نفسه، ص ٤٠٦، ابن زلفه، عسير في عهد الملك عبدالعزيز ص ٢٦٣ — ٢٦٩ (ابن جريس).

(٣) فرد: — يطلق عليه في الحدود المرسومة بين اليمن والسعودية اسم (قهر فرد). القباع، ص ٤٠٦، آل زلفه، ص ٢٦٩.

الناحية الغربية، والتي سأصلها مع الوقت من جانب ناحية ظهران. ينحدر شعيب العرض بين السلسلتين وقد رأينا أجزاء منه من عند المضيق الضيق.

هبطنا من عند هذا الموقع إلى خليط من مساليل تتحد مع بعضها البعض لتكون مجرى فرعه الدغماء الذي يتجه شمالاً ليتصل مع المضيق الضيق. ارتفعنا مرة أخرى إلى مستوى المضيق إلى منطقة ذات صخور جرانيتية أملتتها الرياح تسمى الظهر والتي أعادتنا مرة أخرى لموقع نرى منه أبو همدان وعلامات أرضية أخرى لنجران. أمامنا الآن مسيرة طويلة ومرهقة على الأقدام على امتداد مسيل فرع الراك^(١) الممزق الذي ينحدر فوق أراض قابلة للترسب والتي علينا أن نطوف حولها وحول جلاميد ضخمة والتي كان السير فوقها أمراً صعباً جداً. وصلنا في النهاية إلى المجرى السهل لشعيب الصفراء وسرعان ما وصلنا إلى المعسكر لننال قسطاً من الراحة وننعمش أنفسنا بتناول الشاي والعنب في انتظار وجبة العشاء. تجمعت السحب في السماء أثناء العصر وأثناء المساء حيث تساقطت قطرات من المطر والتي يبدو أنها أثارت نشاط البعوض المحلي إلى حد بعيد. تناول رجال الشرطة وجبة العشاء معنا واستمعوا للأخبار والموسيقى على جهاز اللاسلكي، غير أن التداخل الكهربائي الجوي كان كثير الخذلان لهم.

بدأنا المسيرة عبر الأراضي تجاه رأس وادي نهوكة في الصباح الباكر لليوم التالي، بعد أن قمنا بإرسال عفشنا إلى قصر أبالسعود. قام كل من جابر وصالح اللذان رافقانا كل هذا الوقت خلال زيارتنا إلى المفوجة، بدور المرشد، بإرشادهم

(١) فرع الراك:- ذكر فيليب هذا المكان بهذا الاسم، مع أننا وجدنا بعض المراجع التي ناقشت الحدود بين اليمن والسعودية لا تذكر مكاناً بهذا الاسم، وإنما ذكرت (جبل فريض الراك) ومن المحتمل أنه المكان الذي قصده فيليب. انظر: القباع، ص ٤٠٧، آل زلفة، ص ٢٦٩ (ابن جريس).

لنا سلوك طريق بئر مثلع عند حافة زور وادعه . لاحظت بمحض الصدفة انهما غير قادرين على تحمل العطش في مثل هذه الحملات الدافئة في التلال . لم تكن لديهما فكرة عن الاقتصاد في استخدام الماء ، وكانا يعتمدان دائماً على عامل الحظ أو المعلومات المحلية للحصول على حاجتنا من المياه ، بينما استطعت أنا وبسهولة أن أكتفي بجرعتين من الماء متى ما أحسست بالحاجة إليه .

كان هدفنا الأول هو الوصول إلى كتلة الحجر الصخري البارزة التي تسمى زبرة التي تقع على صخرة عبيان التي تطل بدورها على وادي نهوة على الجانب البعيد . بدأ تسلقنا على مسافة من ناحية الموفجة إلى ما وراء بئر مثلع ووصلنا خلال أقل من ساعة ، وبعد جهد جهيد ، إلى نقطة تماس الحجر الصخري التي ترتفع إلى حوالي (١٣٠٠) قدم فوق سطح الوادي . وصلنا بعد ارتفاع (٥٠) قدماً أخرى إلى منصفه حجر رملي عليها سلاسل جبلية هنا وهناك . كان اليوم جميلاً ، ولأول مرة أرى قمم خولان البعيدة فيما يلي باقم وأرى كذلك سلسلة ضحه وهي تحيط بوادي جبونا من الجانبين .

كان الصعود إلى قمة زبرة التي ترتفع إلى حوالي (٤٠٠) قدم فوق سطح الهضبة وحوالي (٦٥٠٠) قدم فوق مستوى البحر ، صعوداً سهلاً من جهة الشمال حيث بدا الحجر الرملي وكأنه مدرجات لطيفة ، وكل ما شاهدته في الطريق كان ضرباً من الزخرفة البدائية منها رسماً لوعل على صفحة جدار نحتته الرياح كأنه مأوى . استطعت من هذا الموقع أن أرى ميحار إلى البعيد ناحية شرق الجنوب الشرقي وكذلك سلسلة العشة تجاه صعدة ناحية جنوب الجنوب الغربي ، وكذلك جبال السراة البعيدة ناحية الجنوب الغربي . كان كل ما يهمني ، من وجهة نظري هو أنني استطعت أن أحدد بعض النقاط الحدودية التي أرغب في تثبيتها في

خريطتي لهذا الجزء من الحدود. لاحظنا في هذه الأثناء، قطع ماعز على الهضبة، عند القاعدة، وبناء على هذا فقد ذهب صالح ليحضر لنا كمية كبيرة من الحليب والتي بلا شك رحبنا بها كثيراً.

كان عمود الحدود عند صبغة آل شنيّة مشاهداً لنا ناحية الشرق على هضبتة الصغيرة فيما يلي المنخفض العريض لوادي نهوكة. يحمل هذا العمود (الرقم ٥) من جولتي السابقة من عند أم خرق، وأستطيع الآن أن أقوم بتثبيت موقعه. كان العمود السادس مرئياً أيضاً ناحية جنوب الجنوب الشرقي (رأس غربة)^(١) الذي يقع عند رأس مسيل بالاسم نفسه والذي ينحدر هابطاً من عند الجلاميد إلى الجزء الأعلى من وادي نهوكة. كان موقع العمود السابع على رأس هجا إلى الجنوب الغربي من موقعنا على سلسلة مدر الطويلة المواجهة لشعيب المدر وشعيب صغيرة، وكلاهما مصبان لوادي نجران. يتجه الشريط من هنا إلى قمة الدغماء - التي يبدو أنها ليست معلّمة - وتقع بالقرب من المضيق الضيق الذي قد ذكر آنفاً، ثم يتجه إلى أسفل إلى بقعة (غير معلّمة) على الجانب الأيمن لمروان مقابل أسعر. يتبع الشريط الأيسر الجانب الأيمن لمروان إلى حيث عمود مقبرة آل ثعلة (رقم ٨)، ثم يعبر إلى بقعة غير معلّمة على الجانب الأيسر ومن ثم يتبعه إلى أسعر (رقم ٩). يتجه الشريط بعد ذلك إلى مقاشع (رقم ١٠) ومنها إلى ضرك (رقم ١١) ومن هذه إلى فرد (رقم ١٢). كما أخبرت بأنه إلى جانب هذا فإنه توجد حجارة حدود على شحاط الغميرة^(٢) وعلى جبل الاتم وعلى جبل هضاض، غير أن كل من

(١) رأس غربة: - هذا الاسم الذي ذكره فيليبي، ولكن بعد الرجوع إلى بعض المراجع وجدنا أنه يطلق عليه

(رأس غربة) وهو أحد أعمدة الحدود بين السعودية واليمن. انظر: القباع، ص ٤٠٥ (ابن جريس).

(٢) شحاط الغميرة: من الأعمدة الحدودية بين السعودية واليمن، وقد ذكره القباع باسم (شحاط الغمرة)،

المرجع السابق، ص ٤٠٦. وأورده ابن زلفة باسم (شحاط الغميرة). المرجع السابق، ص ٢٦٩. وأعتقد

أن ما ذكره فيليبي (شحاط الغميرة) هو الأصح. (ابن جريس).

جابر وصالح كانا غير واضحين حول هذه المعلومات، لأنها تقع خارج بلادهما، وعليّ أن أقوم بدراسة هذه المواقع عن قرب أكثر خلال الشهور القادمة. إنني قنوع الآن بأن الحدود قد تم تثبيتها من عند تنصاب إلى فرد، إلا أنه لا يزال هنالك الكثير من العمل على نقاط مختلفة على هذا الشريط والتي سينظر في أمرها بعد عودتي من الجنوب^(١).

سرنا على حافة الصخرة من أسفل زبرة إلى أن وصلنا إلى قمة الجرف المطل على وادي نهوكة، الذي يكونه انحدار العديد من المسایل من عند مدرج لجدران منحدر صعبة والذي تراكت الصخور المتساقطة عند قدمه إلى مئزرة من كتل فلزية. توجد نقطة شرطة أخرى في وتر الجلمود وتحتل موقعا بين الأشجار الجيدة النمو والجنبات الكثيفة على جانبي المجرى، وهي عبارة عن خيام، كل خيمة تقع داخل زريبة من أعواد الشجيرات، كما لاحظت أيضاً، قليلاً إلى أسفل أن هنالك عدداً من خيام البدو المنتشرين في ظلال الأشجار إلى جانب حظائر من أعواد الأراك لأغنامهم. رأيت هنا أيضاً عمود حدود بارز (والذي أعطيته الرقم ١٦) ويقع إلى يمين عمود رأس غربة^(٢) وعند قمة ممر عقبة^(٣) التي يقود إليها طريق نجران - صعدة الرئيس، من عند رأس الوادي.

لم يكن في مقدوري أن أنصرف لاستكشاف هذا الموقع خلال هذه الفترة، غير أنني قمت بذلك بعد عودتي من الجنوب، ولعلي أقوم بسرد تفصيلي لوصفها

(١) لمزيد من التفاصيل عن أسماء مواقع الحدود بين السعودية واليمن التي تم الاتفاق عليها في معاهدة الطائف عام (١٣٥٣هـ). انظر: عبدالله القبايع. العلاقات السعودية اليمنية، ص ٣٧٨ وما بعدها، محمد آل زلفه. عسير في عهد الملك عبدالعزيز، ص ٢٠٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) رأس غربة: - الصحيح رأس غربة. (ابن جريس).

(٣) قمة ممر عقبة: يقصد به عقبة نهوكة، والعمود اسمه الصحيح (رأس نهوكة). انظر: القبايع، ص ٤٠٥ (ابن جريس).

فيما بعد. كان هذا الجرف يقوم على ارتفاع (٦٢٠٠) قدم فوق مستوى البحر، وكان حجر تماس الحجر الرملي يجلس فوق طبقة خفيفة (حوالي ١٨ بوصة) من كتلة مشكلة خشنة، يقع أسفلها جرانيت ذو لون رمادي جزئياً (تقريباً أبيض) وجزئياً بلون داكن. كان ارتفاع قاعدة هذا الجلمود حوالي (١٢٠٠) قدم تحت القمة، التي وصلناها بعد تسلق نشط بين الجلاميد المتناثرة وعبر رفوف ضيقة فوق أجزاء ترسيبة للصخرة.

حضر الأمير لمقابلتنا بعد سماعه بعودة فريقنا وبأننا نخطط لزيارة نهوكة، وفي رفقته كل من القاضي والقائد سالم ويحيى بن نصيب، وقد اجتمعنا كلنا في الخيمة الرئيسة لنقطة الشرطة مستمتعين ببرودة المساء وبالقهوة والمنعشات الأخرى، حتى حان وقت صلاة المغرب، وبعدها عدنا كلنا مستغلين سيارة البك أب الوحيدة، منطلقين بها أسفل الوادي إلى حيث نقطة الشرطة التي تقع عند مفترق (الحضن) والبديع، ومن هنالك توجهنا إلى معسكرنا. كانت المسافة حوالي تسعة أميال من عند البئر القديم والذي تقوم الشرطة حالياً بحفره مرة أخرى عند رأس نهوكة وقد قمنا بالقاء نظرة عليه أثناء توقفنا هناك، وذلك لنوازن احتمالات حصولهم على الماء منه ثم نقله إلى قصر أبالسعود الذي يبعد بأكثر من الميادين بقليل من عند نقطة شرطة الحضن. توجهنا إلى منزل سيد علي الجنيد الذي كان يتوقع حضورنا لتناول العشاء عنده، وقد قام بتقديم مدير المالية الذي عين حديثاً في هذا المنصب وهو شاب مصري يدعى محمد البيومي، والذي، لسعادتي قد أحضر لي معه بريدي من أبها - مجموعة خطابات تراكمت خلال ثلاثة أسابيع وإلى جانب الصحف التي أرسلت لي من جدة قبل (٤٠) يوماً! كان ترحيبي بالبريد شديداً خاصة ونحن على وشك المغادرة، ولن نرى البريد والصحف بعد

الآن مدة قد تطول. أخبرني الأمير عن قصة رجل قدم حديثاً من الجنوب حاملاً أخباراً عن اكتشاف لآثار في وادي مرخة في بلاد عُلقى، والتي قد قمت بزيارتها فيما بعد.

لم يكن من ضمن المدعوين يحيى بن نصيب حينما أعلن لنا عن العشاء وكان غيابه بسبب أنه لم تقدم له الدعوة بالتحديد. كان ذلك، على أي حال، خطأ بلا شك، وقد طلب الأمير من فرج أن يذهب لإحضاره، وقد فعل. أصابتنى الدهشة وأنا أرى فرج يدخل غرفتي وقد لبس أجمل الملابس، وسألته أن كان سيقوم بمقابلة سيدة له - كان حساساً جداً لمثل هذه الأشياء، وكان يعرف ما عليه القيام به بالنسبة لمثل هذه المواضيع إلا أنه أجابني بالنفي، لدهشتي، وأضاف أنه قد جاء لتقديم استقالته عن خدمتي من الآن، وأنه يريد كل مستحقاته. تجاهلت طلبه وحاولت أن أخفف عنه، وكل ما استطعت أن أستخلصه منه أنه كان غضباناً غضباً شديداً محتجاً أن يرسله الأمير كأنه الخادم الخاص له لإحضار يحيى للعشاء. لقد جرح هذا التصرف كرامته. ناقشته بلطف غير أنه انصرف ولم يهدأ، علماً بأنني أعرف أنه سوف لا يغادر المكان دون استلامه لاستحقاقاته، إلى جانب أنني بالتأكيد لا أرغب في أن أفقد خدماته القيمة.

كان فرج من أحسن الرجال الذين خبرتهم في كل رحلاتي، وبرغم أنه يتعرض لبعض الحالات المزاجية، فقد كان يكبح جماح نفسه معي، وكان في هذا إجهاد لكل منا، كانت البلاد التي سنتقل إليها، بالطبع، غير مألوفة لديه، ويجب عليّ أن أذكر أنني كنت سعيداً حينما رأيته صباح اليوم التالي، وهو لا يزال غضباً ولا يزال يهدد بالمغادرة، إلا أنه كان يرتدي ملابس العمل، وطوى النسيان الموضوع كله.

كان موعد مغادرتنا، حقيقة، أبعد مما قد اعتقدناه تلك الليلة، إذ أننا لم نتمكن من المغادرة إلاً بعد عشرة أيام أخرى. دعانا في المساء التالي، مهندس اللاسلكي، واسمه محسن جلال إلى العشاء معه واستمعنا إلى بعض التفاصيل عند كارثة اقتصادية حدثت خلال ذلك اليوم. لقد حضر مدير المالية الجديد ليكنس الأمور بمكنسة جديدة، فما أن أعلن رجال الأعمال المحليين بالإصلاحات الجديدة التي سيتم إدخالها في نجران حتى أقبل كل التجار الزيود كرجل واحد، لمقابلة الأمير باحتجاج قوي ضد المشروع المقترح. كانت العملة المعيارية في جزيرة العرب الصحراوية هي ريال ماريا تريزا الذي ضرب عام ١٧٨٦م وهي عملة تحمل دائماً هذا التاريخ، وصورة الامبراطورة واسمها ومتى وأين تم سكها ولا توجد دولة محتكرة لسكها.

أدخلت الحكومة السعودية قبل عشرة أعوام من تاريخ اليوم الريال العربي، الذي سك لأول مرة في مدينة برمنجهام، ويعتمد على الريال التركي المجيدي من حيث الحجم والمحتوى. لم يكن هنالك اعتراض على هذا التطور، طالما لم تكن هنالك محاولة لإسقاط العملة القائمة المحبوبة، غير أن المصاعب المالية إلى جانب أسباب أخرى قد قادت إلى تغيير آخر حديث، إذ تم تعطيل سك الريال العربي، وحل محله الريال السعودي بحجم ومحتوى الفضة كما في عملة الروبية^(١).

أحضر مدير المالية معه من مكة العملة الجديدة، ولتثبيتها فقد تم الإعلان عنها أنها ستكون هي العملة القانونية التي يقبل التعامل بها في نجران - وبالطبع في أي

(١) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ تطور العملات في المملكة العربية السعودية، انظر: غيثان بن جريس. عسير في عصر الملك عبدالعزيز، ص ٢٠٥ - ٢١٢؛ مبارك المعبد. النظم الإدارية والمالية، ص ٩٣ وما بعدها، محمد علي مغربي. ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز خلال القرن الرابع عشر الهجري. (جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) ص ١٦١ وما بعدها. (ابن جريس).

مكان آخر-، ولها قيمة الريال العربي نفسها وبالسعر نفسه، إلى جانب عملات صغيرة من النيكل هي بالاسم (٢٢) قرشاً دارجاً (القروش العادية) للريال الواحد. يتم إعادة كل ريالات ماريا تريزا إلى الحكومة حيث تعتمد في مقابل الضرائب بسعر (٢٤) قرشاً دارجاً للريال. وهذه مضاربة مربحة بلا شك للحكومة، والتي لن تدفع إلى السوق أي ريالات ماريا تريزا أو ذهباً في مقابل التزاماتها. يعني هذا أن الموظفين والشرطة سيكون لديهم فقط إما الريال السعودي أو الريال العربي للتعامل بهما في المتاجر، ولدفع - بالمناسبة - ديونهم القديمة، التي تسبب فيها طول انتظارهم لرواتبهم، عن طريق تراكم الرصيد الدائن، الذي كان التجار كرماء فيه. أعتقد أن الأمير كان متعاطفاً شخصياً مع المجتمع المحلي ضد الأساليب الجديدة لمصلحة المالية في مكة. وسيأخذ الموضوع، بلا شك الكثير من الوقت ويجلب الكثير من المتاعب لجعل العملة الجديدة تجد القبول في المجتمع الذي كان ولعدة أجيال قد تعامل في مودة مع الريال الفرنسي -فرنسي أو فرانسى كما كانوا يسمونه- والبقشة المتواضعة (تعادل زلطة أبها) وشاحي (خمس بقشات) التي ساعدت على تقسيمها إلى أجزاء لا حصر لها.

أحضر علي الجنيدى جهاز (جرامافونه) بعد أن غادر الأمير والقاضي، وجلسنا نستمع إلى إسطوانات عربية لأم كلثوم ولطربين آخرين. كما وصلت إلى مسامعي الأخبار باستدعاء الحملة العلمية المصرية إلى صنعاء في صورة مذلة وذلك لمحاولتهم الشروع في القيام بعمل حفريات غير مصرح لهم بها في وادي خريد. كما قيل لي إن مشروع زيارتهم إلى عمران وقلعة قد عطل، إلى أن يقدموا للإمام تأكيداً قاطعاً بأنهم لن يقوموا بالحفر مرة أخرى. لقد تقلصت حرية حركتهم بكل تأكيد، ولعله في مثل هذه الظروف قررت البعثة حزم أمرها ومغادرة اليمن إلى

عدن في طريقهم إلى حضرموت، حيث سأقوم هناك بمقابلتهم وتبادل الانطباعات حول تجاربنا معهم.

دعانا محمد البيومي في الليلة التالية للعشاء وقد قضيت يوماً مريحاً في صحبة بريدي. غير أنني خلال اليومين التاليين كنت متقلب الحال أحاول مقاومة علامات الحمى التي لا تخفى عليّ والتي لحسن الحظ لم تكن شديدة الخطورة. كنت -على أي حال- قادراً على مقابلة الرجال المتوحشين الذين جمعهم الأمير لي لقيادة مجموعة الجمال الخاصة. وكانت علامات المغادرة لبداية الرحلة المتوقعة في أية لحظة قد تضاعفت في سرعتها مع تكرار الأعذار التي لا مفر منها. لتحاشي تفاؤلية أكبر. نقل إلينا جهاز اللاسلكي، في هذه الأثناء، الأخبار بأن السيد أورمسي قور (O.Gore) قد أجرى مقابلة مع الوفد العربي في لندن حول تعيين اللجنة الملكية برئاسة اللورد (Lord Peel) بيل لإعادة فحص مشكلة فلسطين بغرض إيجاد حل يرضي اليهود والعرب على السواء. لقد تحول الطقس الآن، وبلا شك، نحو الأحسن، وكانت الليالي، في السطح جميلة بشكل مدهش، حيث كنت أنام دائماً، وكنت أرى كلاً من الدائرة القطبية والمشتري يتألمان بين ملايين النجوم. اختفى الضباب المعروف حتى خلال ساعات النهار ووقفت تلال الوادي خاصة في أوقات الصباح الباكر واضحة مثل البلور وقد تحددت فيها الزوايا والصدوع وجوانبها المتجعدة.

أديت صلاة الجمعة (١٧ يوليو) في مسجد القصر ولأول مرة وهو فناء كبير عارٍ ذو أجزاء ضحلة مغطاة في صفوف من الأعمدة ناحية القبلة فقط (الشمال الغربي). بعد انتهاء الصلاة التي أمّها القاضي، عقد الأمير استقبالا جماهيرياً لكل الموظفين والأعيان المحليين. كان موضوع الحديث الرئيس، بعد مناقشة مسألة

فلسطين بإيجاز وأخبار الاعتداء بالأمس على حياة الملك إدوارد أثناء الاستعراض في حديقة هايد بارك، هو حول المشكلة المالية المحلية. كان بعض الإشكال ينحصر في أن المعاملات التجارية للتجار الزيود مرتبطة مع اليمن القريب، أكثر من ارتباطها مع مكة البعيدة، وأن العملة السعودية لا تقبل في اليمن في مقابل البضائع^(١).

أحسست بالحمى بعد عودتي إلى حجرتي غير أن الحمى هذه المرة كانت خفيفة وقضيت بقية اليوم في غرفتي عاجزاً في قبضه التصعيد المتدرج للحمى وكنت أدفع نفسي دفعاً إلى السطوح وبصعوبة عند الساعة العاشرة مساءً لأنقلب على الحمى بالنوم. تفاعلت مع الأحداث في اليوم التالي بهدوء، على الرغم من أنني حضرت حفل العشاء على شرف الأمير الذي دعاه الدعيجي، وهو رجل شرطة آخر وصل حديثاً. لم أكن في حالي الصحية التامة، لأحكم على جودة الطعام النبيل الذي قُدم لنا، وقد هاجمتني الحمى مرة أخرى في اليوم التالي ومنعتني هذه المرة من أي نشاط للمرة الثانية. كنت على وشك أن أتقيأ حينما أخبرت بوصول مضمّان، شقيق اليهودي يوسف، وأنه ينتظر أسفل السطوح ومعه قط بري اصطاده بالرصاص. لقد تغلبت إثارة هذا الخبر على الحمى حينما حضر إليّ وهو يحمل قطعة عادية سوداء من ذيلها! كدت أن أتقيأ في التو واللحظة، وأدّرت رأسي لأقابل الحمى القادمة.

لقد أعطيت الأمير كل ما لديّ من دواء الكوينين في الخرمة، ويبدو أن نجران خالية تماماً من هذا الدواء، غير أن شخصاً طيباً تمكن من الحصول على بعضه

(١) لمزيد من الإيضاح عن الأحوال التجارية في نجران أثناء زيارة فيليبي لها في منتصف القرن الهجري الماضي، انظر: فؤاد حمزة. في بلاد عسير، ص ١٨٦ وما بعدها. (ابن جريس).

وقدمه لي هذا اليوم، وأشعر الآن بتحسن بسببه، غير أنني ظللت صامتاً طوال اليوم التالي في انتظار مغادرتنا التي اقتربت والتي لم أرغب في تعطيلها بسبب مرضي. كما لم أقم بالمشاركة في تناول عشاء الأمير وفضلت أن أنام مبكراً.

صحوت مبكراً على غير عادتي في اليوم التالي، حوالي الساعة الرابعة صباحاً، قبل الشروق بقليل. كان صباحاً جميلاً، اتكأت على حاجز السقف الذي يحيط بسقف غرفتي لأستمتع بمنظر الفجر. عبرت سحب خفيفة عالياً في السماء بينما انتشر ضباب خفيف فوق الوادي، حيث تشاهد برك هنا وهناك مياه سيول لم تمتصها التربة، فوق المجرى الرملي الذي يجري ناحية السطح المستوي بلطف وقد كساه اللون الوردي الذي ظلل عان الدريب ناحية المدخل الشرقي لنجران. تحول هذا اللون ببطء إلى لون برتقالي عميق وهذا بدوره تحول إلى اللون الأصفر المتسخ عندما برزت الشمس فجأة فوق الأفق الواضح. كان هنالك ضجيج وصياح في الفناء السفلي، بينما كنت مشغولاً بمراقبة هذا المنظر، ولما نظرت إلى أسفل ناحية مصدر الإزعاج، رأيت الدعيجي وفرقة صغيرة من رجال الشرطة يحاولون الفصل بين مجموعتين غضبائيتين ممن يدعون استعدادهم للقتال وقد نجحوا في وقف الشجار في نهاية الأمر. لاحظت لبعض الوقت بروداً وعداوة مقنعة بين سالم أفندي، ضابط الشرطة، وموظفي مصلحة المالية والذين يوجه لهم الاتهام بأنهم يخدمون أنفسهم جيداً على حساب الجنود ورجال الشرطة الذين تأخرت رواتبهم كثيراً.

كان هنالك مبرر في هذا الاتهام غير أنه ليس هو بالفرصة الحقيقية لحرب مدنية بين المجموعات المختلفة للموظفين السعوديين. تطورت هذه الممارسة برغم محاولات الأمير للتخفيف منها ببراعة، وأما مشاجرات الصباح فقد نشبت فجأة

بسبب شجار بين سالم ومحسن جلال بعد صلاة الفجر في المسجد، ولربما واصل مؤيدوهما الشجار إلى نهايته لولا تدخل الدعيجي. توقعت أن ننطلق في رحلتنا في اليوم التالي، غير أن الأمير كان مشغولاً بهذا الحدث السيء، لينظر في احتياجاتي، ورغم أنه بعد أن قام بالاستجابات حول الموضوع بقدر ما تمليه الظروف، انتهى بتوجيه مذكرة لوم شديدة إلى سالم مذكراً إياه بأن من واجبه هو الحفاظ على الأمن وليس الإخلال به.

امتنع سالم عن حضور حفل عشاء الجنيدي تلك الليلة التي وقع فيها الإزعاج، وامتنع كذلك عن حضور عشاء الدعيجي في الليلة التالية، وكانت تلك آخر ليلة لنا في نجران في الوقت الحاضر. أمضيت ساعة أو ساعتين جالساً في الحديقة الصغيرة التي أنشأها الجنيدي بعد جهد في جناح سكنه الغير واسع، غير أنه قام بزراعة مساحة صغيرة بالدخن، والذي ينمو الآن بصورة حسنة، إلى جانب نبات الفاصوليا وبعض الخضراوات الأخرى، وأقام صفّاً من الجنداز كحاجز في محاذاة جانب الحديقة. كما أقام معرضاً صغيراً للحيوانات البرية يتألف من ستة غزلان (إدمي) كان قد رباها على لبن الماعز. كان معنا محمد النشمي، شقيق الأمير، وقد أخبرني بأن أصدقاءه يتهمون عليه ذلك لأنه كان يسجل كل ما يفعله في مفكرة مذكرات خاصة (مثلي).

تناولت لأول مرة، بالمناسبة، بلح نجران الناضج في إحدى هذه الأمسيات، وكان بلحاً جيداً للدرجة التي جعلتني أشعر بالأسف بأنني سأغادر نجران تاركاً ورائي مثل هذه الرفاهيات. تحدثنا عن مناجم الذهب وإمكانية تطويرها في الجزيرة العربية وأخبروني عن حجر غريب تم العثور عليه في هذه الأجزاء وهو مجوف وممتلئ بسائل ويحتوي على قطعة من حديد بداخله. لم يحضروا معهم، للأسف

عينة منه لأفحصها. أسرّ إليّ علي الجنيدى أنه لا يحب البقاء في نجران، فأخبرته بأنني من جانبي وبلا شك لا أشاركه رأيه هذا. على الرغم من أنها قد تكون مكاناً غير مريح للحياة فيه في الأيام التي سبقت العصر السعودي حين كانت الحروب القبلية أمراً مستديماً، والتي حكى لنا الأمير عنها حكاية في أحد لقاءاته العامة والتي كان ثلاثة من شيوخ القبائل المعنية بالقصة ضمن الحضور.

أرسل الأمير لإحضار بعض المأكولات الخفيفة وجلسنا كلنا حول طبق كبير ممتلئ بالتمر نمضي الوقت في الحديث عن أيام زمان وأيام الحاضر. طلب مني الأمير أن أتأمل هو وسلطان وجابر وجابر الآخر، كلنا نشارك بعضنا في تناول الطعام من طبق واحد، مشيراً إلى أن هذا كان لا يحدث إطلاقاً في الماضي! إذ كانوا حينها كلهم أعداء لبعضهم البعض، يتطلعون لقتل بعضهم البعض ولا يتحركون حتى داخل مزارع نخيلهم دون حراسة^(١).

لقد سئموا هذا النمط من الحياة، وقرروا ذات يوم، الدعوة إلى هدنة. اتفقوا على اللقاء معاً في بقعة بعينها - كانت سهل سعيد المقابل للمخلاف- شريطة أن يحضر كل واحد منهم إلى مكان اللقاء ومعه تابع واحد فقط. اتفقوا هكذا، حقيقة، غير أن لا أحد بين الثلاثة يثق تماماً في الإثنين الباقيين، وكان أن ذهب كل واحد منهم لمكان اللقاء ومعه عشرون تابعاً مسلحاً، طالبين منهم الاختباء بين الشجيرات، حتى يستغرق الرؤساء الستة في النقاش، وحينها يقفزون من بين الأشجار على كل المجموعة المجتمعة ووضع حد للنزاع القائم وإلى الأبد بقتل

(١) ما يذكر فيليبي من حلول الأمن والاستقرار بين شيوخ وعامة أهل نجران، لم يكن فقط محصوراً في تلك البلاد وإنما انتشر في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية، وصار عموم الناس في رخاء وأمن واستقرار. وهذا يعود إلى فضل الله عز وجل على هذه البلاد، ثم إلى جهود الملك عبدالعزيز آل سعود الذي عمل جاهداً على محاربة الفوضى والصراعات القبلية التي كانت ضاربة أطنابها في كل صقع من أصقاع البلاد. (ابن جريس).

المنافسين الآخرين لرئيسهم. وحدث هذا، تماماً كما خطط له ثلاثتهم يدفعهم عدم ثقتهم المتبادلة في بعضهم البعض، وحينما حانت ساعة الصفر، تحركت ثلاثة جيوش إلى الفضاء المكشوف لبدء معركة لم ينج منها إلا الرؤساء الثلاثة الذين هربوا أحياء، وهم الذين نراهم الآن يتناولون التمر معنا من الطبق المشترك نفسه في تمام السلام والأمن الذي جلبناه لهم. وسأل الأمير ثلاثتهم إن لم يكن ذلك هو الحقيقة. فكانت إجابتهم إنها عين الحقيقة والحمد والشكر لله ثم لابن سعود.

وصل أخيراً اليوم الكبير، الرابع والعشرون من يوليو، الذي حددناه لمغادرة نجران إلى الأقاليم التي لم تستكشف بعد في الجنوب. كان الكل مشغولاً بالإعداد وتجهيز العفش للدرجة التي شغلته عن إيقاظي من النوم، حتى هدير جمال الأحمال لم يزعج نومي الخفيف في خيمتي المتنقلة فوق السطح. كانت الساعة تمام السابعة والنصف صباحاً حينما صحت مع شعاع الشمس وقد ارتفعت بما فيه الكفاية لتضرب على حاجز السقف، ورحلت الجمال بالعفش عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً. تناولت الإفطار في صفاء للذهن مع الأمير ومع مرشديّ الرئيسين، الذين انطلقوا على ظهور جمال الركوب مباشرة بعد الإفطار حيث تركوني ومجموعة صغيرة لتتبعهم على ظهر السيارتين. كانت الساعة الثانية ظهراً حينما تحركنا من عند قصر أبي السعود، الذي لن نراه ثانية إلا في الثاني عشر من أكتوبر، بعد عودتنا من غياب سيستمر (٨٠) يوماً عامرة بالتجوال المثمر في الصحراء والذي قد نشرت أحداثه منذ وقت بعيد في صحف «بنات سبأ»^(١).



(١) لمزيد من التفاصيل عن كتاب: — بنات سبأ. انظر: النسخة العربية التي ترجمتها وطبعها مكتبة العبيكان (الرياض ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) وهذا الكتاب تم تدوين معلوماته أثناء هذه الرحلة التي قام بها فيليبي إلى جنوبي البلاد السعودية. (ابن جريس).